شَوْقِي ضَيْف والنَّحْو

أ.د. عبده الراجحي(*)

قد يكونُ شوقي ضيف واحدًا من أبرز الذين يمثلون ثقافة جيله من الباحثين؛ تلك الثقافة التي تستند - في معظم أمرها - إلى خصائص الحياة العقليّة الإسلاميّة في القرون الأربعة الأولى، حين كان النظر عملاً كليًّا، يدور في مجالات يراها متعالقة متشابكة، ومن الخطأ البين عزل أحدها عن الآخر، أو الانكفاء على أحدها دون الآخر. ويبدو أن الأصل الذي صدرت عنه العلوم العربية والإسلامية كان أصلا واحدا؛ لأنها جميعًا توجّهت إلى النصّ القرآني، ومِن ثَمَّ أصبح الالتحام بينها أمرًا طبيعيًّا يقتضيه توحد الهدف ولا يأباه تنوع المادة واختلاف الأداة، وصار ذلك سمة غالبة، واتجاها شاملا يشق طريقه نهرا متدفقا من المنبع إلى المصب؛ فرأينا النحوي الأديب القارئ من الأئمة السبعة، والفقيه الشاعر اللغوي، والكاتب الناقد الكلامي، والطبيب الفيلسوف اللغوي. . . .

وفي العصر الحديث عاد هذا الاتجاه قويا ريان مرة أخرى، وحفل النصف الأول من القرن العشرين - في مصر على وجه الخصوص - برموز عالية لهذا الاتجاه: الرافعي والعقاد وطه حسين وأحمد أمين وأمين الخولي. . ثم شوقي ضيف.

شغل شوقي ضيف - رسميًّا - كرسي الأدب العربي في جامعة القاهرة، غير أن أحدا لم يستغرب إسهامه القوى في البلاغة، ولا ولوجه ميدان الدرس الإسلامي. أمّا نشاطُه النحوي فقد اقترب كثيرًا من حيث الكَمّ والنوع من جهده الأساسي في درس الأدب. والحق أن هذا التصور الكلي قد أفاده إفادة كبيرة عند التناول؛ لأن الماء الذي يجري في كل هذه العلوم يكاد يكون ماءً واحدًا، وروافد الغذاء متكاملة، والإثمار - على اختلاف ألوانه - يفضي إلى بناء واحد.

دخل شوقي ضيف النحو العربي - إذن - دخولاً طبيعيًّا متنفّسًا هواء القرون الأولى، ومتملكًا أدوات الإحياء في العصر الحديث.

وليس من هدف هذا المقال أن يتوفر على إنتاج شوقي ضيف في الدرس النحوي، لكنه يرسم الخطوط العامة التي تكوّنُ فكره وتؤثر في حركته.

(*) أستاذ بقسم اللغة العربية، كلية الآداب - جامعة الإسكندرية.

ولعلَّ أهمَّ ما يلفتُ الدارسين أنَّ شوقي ضيف أخرج للناس كتابه عن "المدارس النحوية" بعد أن قرأوا محاولات متعددة للتأريخ للنحو العربي، غير أن كتابة جاء متماسكًا متمايزًا، يضع الحدود الفاصلة بين المدارس، ويسندها بأدلة قد يكون استقاها من توجهات السابقين أو افترض بعضها افتراضا، لكنه استمسك بها ولم يحد عنها مما أكسبها تناسقًا واطرادًا.

ولقد يكون مناسبا أن نشير إلى عدة أمور:

أولُها: أنَّ عقلية شوقي ضيف - بطبيعتها - عقلية تصنيفية، والتصنيف صلبُ العلمِ وجوهره، وهذا واضح جدًّا فيما قدّم من دراساته عن الأدب العربي في عصوره المختلفة ، وهي كلُّها دراسات تصنيفية تضع الحدود للمراحل الزمنية، وللبيئات المكانية، وللاتجاهات الأدبية، كما يتضح ذلك من دراسته عن تطور البلاغة وتاريخها . وهذه العقلية التصنيفية نتاجٌ لما أشرنا إليه من انغماسه وانغماس جيله في أعمال القرون الأولى التي شُغلت ـ أيضًا ـ بتصنيف الشعراء والفقهاء والقراء والنحاة إلى طبقات، والتي وضعت أصول علم الرجال ونقد الأخبار.

ثانيها: أنَّ مصطلح (المدارس) قد يكون مصطلحًا حديثًا، وأنَّ ثمة مَنْ يؤثر عليه مصطلح (المذاهب)، غير أنَّ ذلك كله لا يفضي إلى خلاف حقيقي؛ فالفروق لفظية ليس غير.

ثالثُها: أنَّ بعضَ الدارسين يأخذ على شوقي ضيف كتاباته التصنيفية هذه؛ بحسبانها دراسات أفقية لا تستهدف أعماق المسائل و إنما تركن إلى التجميع والفهرسة ولَمِّ الشتات. والحَقُّ أنَّ هذا الرأي فيه ظلمٌ كبيرٌ لهذا المنهج ولِمَنْ سار سيره آنذاك. نحن الآن نرى الأمر يسيرًا في درس الأدب؛ لأنَّ شوقي ضيف مهّدَ لنا السبيل وحدّدَ مسالكَه ودروبه. وإني لأرى جهدَ الرجل في هذا الشأن هو جهد الرائد الذي يؤمّن الطرق ويحدد المعالم، ولقد أفاد كثيرون ممن أعرف من كتابه "المدارس النحوية" الذي نقده آخرون.

رابعُها: لم يكن تناول شوقي ضيف للمدارس النحوية تناولاً شكليًا يسرد الآراء كما اعتاد آخرون، بل حاول في كل مرة أنْ يبحث عن الروافد الفكرية التي تغذي كلَّ مدرسة، فأبرز - غير مرة - الأسسَ المذهبية والسياسية والاجتماعية التي تكمن وراء كل مدرسة. ويبدو أنَّ ذلك جزءٌ من المناهج العلميّة التي انتشرت في عصرنا، ولسنا نستغرب أن يظهر الكتاب المعروف عن "مدارس علم اللغة" بعد كتاب شوقي ضيف باثني عشر عامًا:

Geoffery Sampson:Schools Of Linguistics, Stanfort, Californoa, 1980.

وبعد ذلك لك أنْ تتّفقَ مع أستاذنا أو تختلف معه فيما سلكه من تصنيف هذا العَالم أو ذاك في هذه المدرسة أو تلك؛ فقد يبدو واضحًا أنَّ الأستاذ قد اتكأ على دعامتين: الأولى ما تناقلته كتب الطبقات في

تصنيف النحاة، والأغلب أنَّ نَقْلَ اللاحقِ عن السابق كان شبه سُنّةً متّبعةً. والثانية أنه نظر - فعلاً - في أعمال العلماء وأجرى تصنيفهم على افتراضه ابتداء من خصائص كل مدرسة.

غير أن ثمة شيئين نرى الإشارة إليهما:

الأول: أنه أكد (ص١٥٨) أن المدرسة الكوفية لا تباين المدرسة البصرية في الأركان العامة للنحو، وتلك لفتةٌ مهمةٌ جدًّا في فهم النحو العربي في تاريخه الطويل؛ فالحَقُّ أنَّ الأركان العامة ظلّت واحدةً عند المدارس جميعها، والاختلافات - بعد ذلك - في الفروع، وهذا هو السبب الجوهري في اكتساب النحو العربي خصائصه المعروفة التي استقرت عبر القرون، وهي التي جعلته يحتفظ بحيويته واستقراره بما يمكن أَنْ نطلقَ عليه (الصلاحية التاريخية).

الثاني: أنَّ الأستاذَ يكاد يؤكّد أنَّ اللحنَ كان من وراء نشأة النحو، وقد شاع هذا الرأي في العصر الحديث بحيث صار كالحقائق التي يجب التسليم بها. والذي نراه أن اللحن لم يكن السبب الوحيد، بل لم يكن السبب الأساسي. فالنحو على صورته الأولى التي وصلت إلينا في "الكتاب" لم يكن نحوًا لمواجهة اللحن، بل أداة مهمة جدًّا لمحاولة فهم اللغة، والفرقُ شاسعٌ جدًّا بين محاولة الفهم ومحاربة اللحن. ولقد ذكرنا أن النحو - شأن العلوم الأخرى - نشأ لمحاولة فهم النص القرآني الكريم.

ويأتي بعد "المدارس النحوية" كتابُه المهم "تجديد النحو". والذي لاشك فيه أنَّ الناس يَشْكُونَ من تعلّمِ النحو العربي ويرونه بعيدًا عن الفهم وعن الاستعمال. من هنا يبرز إغراء الكتابة في تجديد النحو أو تيسيره، ويجد - في الأغلب - استقبالاً مشجّعًا ورغبة قوية في الدعم، وليس هذا بالجديد، كما أنه ليس خاصًّا بالعربية، فلا تزال تشهد أوقاتُنا - رغم التقدم العلمي في هذا المجال - دعواتٍ من هذا القبيل تتخذ عناوين برّاقة في كثير من الأحيان.

وليس من همّنَا هنا - أيضا - أن نخضع كتاب "تجديد النحو" للدرس التفصيلي، فقد درسه غير واحد من الباحثين، لكنّنا - مرة أخرى - نشير إلى بعض الأسس الكبرى التي قد تكشف عما ينبغي بيانه في هذا المجال:

أولاً: أن ابنَ مضاء كان من وراء هذا النشاط الذي انغمس فيه شيخُنا وظلّ مقتنعًا به إلى أَنْ لقي ربه. والحَقُّ أنَّ آراء ابن مضاء في نقد النحو العربي - وبخاصة في نقده نظرية العامل وما صاحبها من تعليل وتأويل وتقدير - قَدْ لقيت استجابةً واسعةً حين قدّمَ شوقي ضيف كتابه "الرد على النحاة"؛ فقد ظهر الكتاب في وقتٍ كان علمُ اللغةِ قد بدأ يشقُّ طريقَه إلى الدارسين، ويحمل معه نقدًا قويًّا للأنحاء التقليدية في

الغرب، فالتقى كل ذلك على هوى واحد في الاستمساك بالوصفية الشكلية للظاهر الملموس، ورفض التفسير العقلي الذي يصر على أنه يرى مالا تراه الحواس الفاحصة لما يخضع للملاحظة فحسب.

وأنتَ لَنْ تجدَ صعوبةً كبيرةً في أَنْ تُرْجِعَ معظم ما في الكتاب من آراء إلى ابن مضاء، ومن ثَمَّ تبدو الدعوة إلى "تجديد النحو" غير معزولة عن التراث، وليست خروجًا على ما استقر عليه القدماء، بل هي امتداد لمحاولات علماء لهم قدرهم ولهم تاريخهم.

ثانيًا: أنّ أسس الوصف النحوي ظلت غائبة معظم الوقت، فقد بدا التجديد كأنه نوع من تخفيف الجهد في الدرس، أو من تخفيض الكلفة على الناس، وقد كان ذلك مغريًا إغراءً كافيًا لطَمْسِ كثيرٍ من معالم هذا العلم الذي ينهض على المعاني أو الوظائف النحوية، ويمكنك أن ترجع - على سبيل المثال - إلى الاقتراحات الخاصة بـ"كان وأخواتها"، و"أفعال المقاربة"، و"التمييز" لنرى تأثير إغراء "التخفيض" و"التيسير" على غياب وظائف التراكيب.

ثالثًا: أنّ تجديد النحو - شأنه شأن المحاولات الكثيرة في العصر الحديث - يفضي إلى تيسير تعليم النحو وتعلّمه. وهنا اختلطت الأمور اختلاطًا شديدًا، وغاب أصلٌ أساسي من أصول المسألة، ذلك أن ثمّةَ فروقًا جوهرية بين نوعين من النحو: النحو العلمي، والنحو التعليمي. أمّا النحوُ العلمي فهو نحوٌ يصف اللغة - في كل دقائقها - وصفًا علميًّا، فلا يصحُّ أَنْ يتركَ نقطةً مهما يصغر شأنها، وليس من حقّه أن يدمجَ أشياء لا تقبل الدمج. وهذا النحو له الآن حدودٌ واضحةٌ جدًّا، ومصطلحات دقيقة، وقد عدّهُ بعضهم رأسَ علومِ اللغة، والنحو العربي - على وجه الخصوص - أثبتَ هذه الصلاحية التاريخية التي أشرنا إليها. أما النحو التعليمي Pedagogical grammer

فهو نحو انتقائي في جوهره، له أهدافه العامة والخاصة، وتحدد شكلَه وإجراءاته عناصرُ كثيرةٌ جدًّا: لغويّةٌ واجتماعيّةٌ ونفسيّة، وتؤثر فيه عواملُ الوقت المتاح، وأعمار الدارسين، ونوعُ دراستهم... إلى آخره مما يضيق به هذا المقام.

مِنْ هنا قَدْ نرى أنَّ فَحْصَ "تجديد النحو" لا ينبغي أن يكون بمعزل عن هذا الذي قدمناه.

ومهما يكن مِنْ أمرٍ فقد اقتربتُ من شيخنا في أوقات متباعدة من عمره المبارك، وكنتُ أرى في عَيْنَيْه حبًّا عارمًا للعربية، وإخلاصًا مسيطرًا لتراثها ولعلومها، وأملاً غالبًا أَنْ تكونَ هذه اللغةُ الشريفة متقنةً على ألسنة الناس وفي أسماعهم.